مجلة اللغة العربية وآدابها علمية محكمة
السنة ١٢، العدد ٤، شتاء ١٤٣٨ هـ
صفحة ٥٢٧ -٦٧٥

Print ISSN: 1735 -9767
Online ISSN: 2423 – 6187
jal-lq.ut.ac.ir

إنسانية المعاني والألفاظ عند حازم القرطاجني

علي باقر طاهري نيا[١]، ابوبكر محمودي[٢*]، نعيم رحماني[٣]

١. أستاذ، قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة طهران
٢ و٣. طالب دكتوراه، قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة طهران

(تاريخ الاستلام: ٢٠١٦/١٢/٥ ؛ تاريخ القبول: ٢٠١٧/٣/١١)

الملخّص

قد كان موضوع اللفظ والمعنى من أهم الموضوعات التي تطرق إليها العلماء والأدباء منذ القرون الأولى إلى يومنا الحالي، وسبر غير واحد منهم ميدان هذه المسألة المثيرة للجدل والنقاش، وسلكوا مسالك مختلفة ومتناقضة أحيانا، وما من شك أن للألفاظ والمعاني حياتها، فمنها ما تموت عبر الزمان ومنها ما تبقى على مر العصور، ومنها ما يطرأ عليها التبديل وتظهر في ثوب جديد! فلها ـ كما للإنسان ـ حياة، ولها شأنها ومكانتها في المجتمع. والقرطاجني يرى أن اللفظ والمعنى يكملان بعضهما البعض، فهما وجهان لعملة واحدة لا عمل لواحد دون الآخر! ويعتقد أن المعاني لو صبّت في قالب الألفاظ الجميلة والخلّابة لتضاعف تأثيرها على المخاطب، هذا وأن القرطاجني يخلع على كثير من المعاني والألفاظ صفات إنسانية وكأنه يرى في المعاني والألفاظ مجتمعا بشريا ينحو بتعاونه نحو التقدم والرقي، ويشل عن حركته وتقدمه دون التعاون والدينامية. وما حصلنا عليه خلال دراسة هذا الموضوع خلال المقال وضمن استخدام المنهج التوصيفي- التحليلي أن القرطاجني يخلع على كثير من المعاني والألفاظ معانٍ بشرية، على غرار ما نرى عن القبض والبسط والفطرية ووجود بعض الصفات البشرية في الألفاظ والمعاني كالخساسة والرذالة والقباحة والشناعة والحسن و... .

الكلمات الرئيسة

حازم القرطاجني، إنسانية اللفظ، إنسانية المعني، منهاج البلغاء، النقد الأدبي.

* الكاتب المسؤول
Email: aboo.mahmodi@gmail.com

Archive of SID
www.SID.ir

مقدمة

ما من شك أن اللفظ والمعنى قد احتلّا منذ القديم إلى يومنا الراهن مكانة مرموقة كبيرة في الأدب العربي، وذهب النقاد والأدباء في ذلك مذاهب، فمنهم من قالإن الأصل هو اللفظ دون المعنى ومنهم من قالأن اللفظ يتمحور حول المعنى، فهو خادم له، غيرأن هناك من يرى أنه لافرق بين المعنى واللفظ، فهما ينبعان من معين واحد لاينضب، والآخرون يرون أنّ اللفظ والمعنى يكملان بعضهما البعض. وحازم القرطاجني ممن يرى في المعني روحا وفي اللفظ جسدا ينطلق بفعل بهذا الروح لتسموَ به الى آفاق الخيال! فكان يقول: يجب أن يكون اللفظ طبقا للمعنى تابعا له جارية العبارة من جميع أنحائها علي أوضح مناهج البيان والفصاحة! (القرطاجني، ١٩٦٦: ٢٢٣) فاللفظ العليّ عند حازم يتفرّع من المعاني السامية، بحيث لو كانت المعاني رديئة نحيلة يتبعها اللفظ في ذلك فيصبح الرديء النحيلَ! وعلى العكس من ذلك فلو كانت المعاني شامخة كريمة فيصبح اللفظ تبعا لها شامخا كريما! وكذلك لو اتصفت المعاني بالصفات الإنسانية أو اصطبغت بصبغتها سواء أكانت الصفات رفيعة أم رذيلة، لاتّبعتها الألفاظ وصارت المعاني نفسها وكأنها لاتختلف عنها في شيء منها!.

أسئلة البحث

التساؤلات التي تطفو الى السطح لدى المتلقي كالتالي:

- ماهو المراد من إنسانية المعاني والألفاظ لدى القرطاجني؟
- كيف تبلورت إنسانية المعاني والألفاظ في أعمال حازم القرطاجني؟
- ماهي الأسباب التي دفعت بحازم لكي يُصبغ علي المعانيوالألفاظصفاتإنسانية؟

الإجابة علي التساؤلات المذكورة أعلاه هي ما يسعى الكُتّاب أن يحصلوا عليها خلال المقال.

خلفية البحث

قد أطلق العلماء والكُتّاب والنقّاد منذ القدم عنان الكلام في موضوع اللفظ والمعني، وفي اتصافهما بالمعاني البشرية والإنسانية، وخاضوا في أغواره وسبروا أعماقه، فالجاحظ أقدم من تناول هذا الموضوع في كتابه "البيان والتبيين" وكذلك في رسائله، ثم صار علي الدرب غيره من كبار العلماء كإبن رشيق في "عمدة" وابن قتيبه في "الشعر والشعراء" وعبدالقاهر الجرجاني في "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة" وابن سينا الفيلسوف والطبيب الإيراني الفحل في كل من

Archive of SID

www.SID.ir

"الشفا" و"التنبيه والإشارات" والباقلاني والقاضي عبدالجبار وغيرهم! غيرأنه اختلفت وتضاربت أقوالهمبهذا الصدد! وتطرّق غيرواحد من الدارسين والباحثين المعاصريين الي نظريات هؤلاء العلماء وقاموا بنشرها وتبيينها، كما شرحوا آراء حازم القرطاجني فيما يخص باللفظ والمعني واللغة والنقد، فعلي سبيل المثال صنّف الأستاذ سعد مصلوح كتابا قيّما حول نظرية المحاكاة والتخييل عند حازم بعنوان: "حازم القرطاجني ونظرية المحاكاة والتخييل في الشعر" وقامت منشورات عالم الكتب بنشر هذا الكتاب منذ سنة ١٩٨٠، كما نشر نجم مجيد علي مهدي مقالا في مجلة كلية التربية الأساسية في عددها السبعين بسنة ٢٠١١ بجامعة المستنصرية يحمل عنوان: "الجهود النقدية لحازم في كتابه منهاج البلغاء وسراج الأدباء" و...، الاأن هذه المحاولاتلم تتناول موضوع إنسانية اللفظ والمعني عند حازم ولما استطعنا أن نحصل على مصادر أو مقالات أو كتب كانت قد تطرقت إلى شيء من ذلك فكأن هذا الموضوع أرض بكر لم تمس بعد!وكلنا أمل أن نملأ هذا الفراغ خلال المقال الذي بين أيديكم. جدير بالذكر أنّ فصل الأول من كتاب المنهاج والذي يضم بين طياته موضوع اللفظ ما وصلنا فيا حبذا لو كان يصلنا هذا الفصل لكي نسبر في أغوار الموضوع بدقة وتفصيل مزيدين.

منهج البحث:

وأما المنهجيّة التي أتبعناها خلال البحث فهي منهجيّة توصيفيّة تحليليّة بحيث قمنا بداية بذكر آراء القدماء فيما يتعلق باللفظ والمعني ثم عقّبنا آراءهم برأي القرطاجني ثم تفرّدنا قسماً خاصا من المقال لتلك المعاني والألفاظ التي تبلورت فيها الصفات الإنسانية وقمنا بتحليلها وتفسيرها وبيّننا تأثير ابن سينا عليه على وجه الخصوص وعلى فكرته.

عن اللفظ والمعني:

فقد كان موضوع اللفظ والمعني موضع جدل العلماء والنقاد منذ القديم الي أيامنا الحديثة وذهبوا في ذلك مذاهب مختلفة ومتناقضة أحيانا، فنستطيع أن نلخّص تلك المذاهب في الأربعة التالية علي وجه من الإيجاز والاقتضاب:

المذهب الأول

كان يرى أتباع هذا المذهب أن الأصل الأصيل والمحور الرئيس هو اللفظ دون المعنى، وذلك لأنهم كانوا يرون أن المعاني في متناول الجميع، فيتطرّق إليها الأمي والعالم والجاهل

Archive of SID

www.SID.ir

والشاعر والكاتب والناثر و.... والجاحظ في طليعة هذا الفريق ويقول: «والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخيّر اللفظ وسهولة المخرج وفي صحة الطبع وجودة السبك فإنما الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير» (الجاحظ، ١٩٦٩، ج٣: ١٣١-١٣٢).

وأبوهلال العسكري هو من كبار العلماء الذين حذا حذو الجاحظ فيما ذهب اليه من فكر ومعتقد، ويعتقد أن البلاغة هي تخيّر اللفظ وولج في كتابه الشهير "كتاب الصناعتين" في أبواب اللفظ والمعني، وتطرّق فيه الي آراء الأدباء وسائر نقّاد عصره عن هذا الموضوع، وكان يقول: «مدار البلاغة علي تحسين اللفظ» (العسكرى، ٢٠١٣: ٥٦).

انبهر الكثيرون من النقاد والأدباء بهذا المذهب عبر القرون الغابرة والحالية بحيث رأوا في اللفظ قوّة تُسحِرُ القلوب وتسخِّرها لإشتمالها علي الصفات المختلفة كالهمس والجهر الخ، فمنهم قدامة بن جعفر حيث يقول: « المعاني كلّها معرضة للشاعر، وله أن يتكلم منها في ما أحب وآثر، من غير أن يحظر عليه معنى يروم الكلام فيه، إذ كانت المعاني للشعر بمنزلة المادّة الموضوعة، والشعر فيها كالصورة، كما يوجد في كل صناعة... وعلى الشاعر إذا شرع في أي معنى كان من الرفعة والضعة، والرفث والنزاهة، والبذخ والقناعة، والمدح وغير ذلك من المعاني الحميدة أو الذميمة، أن يتوخّى البلوغ من التجويد في ذلك إلى الغاية المطلوبة» (قدامة بن جعفر، دون تا: ٦٥-٦٦). وقد لاقى هذا الإتجاه انتشارا واسعا عند النقاد المعاصرين المتمثلين في الشكلانيين والبنيويين،حيث يعطون الأولوية للفظ والبنية، والبنية هي التي تتعين المعنى او الفحوي، فهم يرون أن القصيدة تتمتع بشخصية متماسكة حية وأنها وحدة تتألف من عناصر مختلفة كثيرة وهي متماسكة متوازنة من حيث الشكل والمحتوي» (جاسم، ١٩٨٦: ١٥١).

المذهب الثاني

ذهب هذا الفريق إلى القول بالجمع بين اللفظ والمعنى وعلي رأس هذا الهرم ابن قتيبة، فكان يرىأن الشعر يسمو بسموّهما وينخفض بضعتهما وانخفاضهما، وقد قسّم الشعر إلى أربعة أضرب كالتالي:

١. ضرب حسن لفظه وجادّ معناه.
٢. ضرب منه حَسُن لفظه وحلا، فإذا فتّشْتَهُ لم تجد هناك فائدة في المعنى.
٣. ضرب منه جادّ معناه، وقصُرت ألفاظه.
٤. ضرب منه تأخّر معناه، وتأخّر لفظه. (ابن قتيبة، ١٩٥٨، ج١: ٦٤-٦٩)

Archive of SID

www.SID.ir

لا يعتقد ابن قتيبة بتفاضل أحد من اللفظ أو المعنى على الآخر؛ لأن كل منهما له دوره في إيصال المعنى الى المتلقي! فلامزية لأحدهما على الآخر بحيث يكون اللفظ حسنا وكذلك المعنى وقد يتساويان في القبح وقد يفترقان، غيرأننا نقول إنوضعاللغة في أطر جافة محدّدة وإدارجها في قوالب معينة خطأ بيّن؛ لأن اللغة تعتدي حدود التقسيم، وتشتمل على ما يتجاوز حدود اللفظ البسيط والمعنى المتبادر الى المعاني غيرالمتبادرة وغيرالمحسوسة.

المذهب الثالث

يعتقد أصحاب هذا الفريق بتفاضل المعني على اللفظ، وهذا هو المنهج الشائع عند كثير من القدماء، فهم يعتقدون أن اللفظ ليس الا وعاء يملأ بالمعني المراد. وخير من يمثل هذا المذهب ابن جني، حيث يقول إن العرب فيما أخذناه عنها وعرفناه من تصريف مذاهبها عنايتها بمعانيها أقوى من عنايتها بألفاظها... فالمعنى إذن هو المكرم المخدوم واللفظ هو المبتذل الخادم. (حاجي زادة، ٢٠١٠: ١٦) وكذلك انظر إلى قول ابن رشيق في عمدته قائلا: «اللفظ جسم ، وروحه المعنى، وارتباطه كارتباط الروح بالجسم : يضعف بضعفه ، ويقوى بقوته، فإذا سلم المعنى واختلّ بعض اللفظ كان نقصاً للشعر وهجنة عليه... فإن اختلّ المعنى كله وفسد بقي اللفظ مواتاً لا فائدة فيه» (ابن رشيق، ١٩٨١، ج١: ١٢٤).

المذهب الرابع

يرى أصحاب هذا المذهب أن اللفظ مكمل المعنىولاينبغي التفارق بينهما، وإمام هذا الفريق عبد القاهر الجرجاني حيث يرى أن اللفظ والمعنىمتعاونان معا على كشف العلاقة التي عبّرعنها بالنظم.وقد يخيل للبعض أن عبد القاهر من أنصار المعنى دون اللفظ لقوله في دلائل الإعجاز: الألفاظ خدم المعاني. (الجرجاني، ٢٠٠١: ٥٣) إلا أنه يتضح لنا في خضم بحثه حول اللفظ والمعنى أنه لا يقصد من جملته السابقة إلا معارضة أنصار اللفظ، لأنهم كانوا قد أعطوا المكانة الأولي للفظ دون المعنى، وهولم يرد أن ينتصر للمعنى فحسب؛ لأنه يعتقد أن العلاقة القائمة بينهما علاقة الوعاء بشيء موعي، فهو يري أن أهمية اللفظ تكمن في علاقته مع الجملة ومع ما سبقته ومالحقته من الألفاظ والتعابير. (الجرجاني، ٢٠٠١: ٤٣؛ شميسا، ١٣٨٨: ٧٩)

Archive of SID

www.SID.ir

اللفظ والمعنى عند حازم القرطاجني

كان يرى القرطاجني أن هناك وحدة بينكُلّ من اللفظ والمعنى، غير أن المعنى في مسيرة تكوينه و تشكيله يحتاج الى اللفظ والتعبير لكي يستطيع أن يرى النور ويظهر في ساحة الوجود، ولكنه ورغم كل ذلك يضع المعنى في رأس الهرم واللفظ تحته، فالأولوية للمعنى دون اللفظ، والكلمة عنده تابعة للمعنى جارية على مضمونها، وجودته أو ردائته منوطة بالمعنى.فكان يقول: «يجب أن يكون اللفظ طبقا للمعني تابعا له جارية العبارة من أنحاءها على أوضح مناهج البيان والفصاحة» (القرطاجني، ۱۹۶۶: ۲۲۳)، كما كان يعتقد أن المعاني هي كاللوحة للصور، واللفظ ليس إلا انسجام تلك الألوان ومزجها مع بعضها وقد أشار في غير موضع من كتابه"منهاج البلغاء" ـ كما سنآتي لاحقا بمزيد من البسط والتفصيل ـ الى أن اللفظ له مكانته في حد نفسه، بحيث لولم يكن اللفظ لما ظهرت المعاني أبدا ولقَبَعت في سجن الذهن، فظهورها مدينة للألفاظ وهذا هوالسبب أننا أدرجنا القرطاجني رغم إشارته في غيرموضع الى تبعية اللفظ من المعنى فيأتباع المذهب الثالث القائل باتحاد اللفظ والمعنى.

يعتقد القرطاجنيبأن المعاني هي الأصل وعندما يتم التعبير عن تلك المعاني في قالب الألفاظ يطرأ عليها التبديل والتحويل، فتتحوّل الألفاظ الى وجود حقيقي لتلك المعاني، فصارت هي هي، ويكمل بعضهما البعض، وعلى حد تعبيره في منهاجه بنصّه وفصّه: «إذا عبر الإنسان عن تلك الصورة الذهنية الحاصلة عن الإدارك أقام اللفظ المعبّر به هيئة تلك الصورة الذهنية في أفهام السامعين وأذهانهم، فصار للمعنى وجود آخر من جهة دلالة الألفاظ» (القرطاجني، ۱۹۶۶: ۱۸-۱۹). كما كان يعتقد أن الدليل هو اللفظ والمدلول هو المعنى، بحيث لو لم يكن هناك دليل وهو اللفظ لَمَا كان هناك مدلولاوهو المعنى، واذا حصل المعنى ليس هذا الحصول الا نتيجة لوجود اللفظ، فتكون المسألة إذن كالتالي:

المعنى أو المدلول ⇄ اللفظ أو الدال

فاللفظ الخارجي تعبير عن المعنى الذهني، وهذا المعنى ليس بإمكانه أن يرى النور دون أن يتم التعبير عنه باللفظ وعلى ما يقول الأخطل في إحدى قصائده:

إنَّ الكَلَامَ لَفِي الفُؤَادِ وَإنَّمَا جَعَلَ اللِّسَانَ عَلَى الفُؤَادِ دَلِيلَا

(الأخطل، ۱۹۹۶: ۵۶۰)

فعلاقتهما علاقة تضافر وتكامل، ونعتقد أن هذا الرأي هو الصحيح الصائب؛ لأن

Archive of SID

www.SID.ir

غيرواحد من النقاد والأدباء المعاصرين ذهبوا إلى تضافر اللفظ والمعنى ولايرون أن يكون المعنى منفصلا عن اللفظ أو على العكس. فالقرطاجني يرى أن المعاني لوصبّت في قالب الألفاظ الجميلة والخلّابة لتضاعف تأثيرها على المخاطب، كما أن الشراب اذا كان في آنية صافية شفّافة لكان أكثر لذّة للشاربين! وعلى حدّ تعبيره بالحرف الواحد:

«فإذا تلقّى الإنسان المعنى في عبارة بديعة اهتزّ له وتحرّك لمقتضاه، كما أن العين والنفس تبتهج لاجتلاء ماله شعاع ولون من الأشربة في الآنية التي تشفّ عنها كزجاج والبلور مالم تبتهج لذلك إذا عرض عليها في آنية الحنتم (الجرة السوداء) وجب أن تكون الأقاويل الشعرية أشد الأقاويل تحريكا للنفوس؛ لأنها أشد إفصاحا عما به علقة الأغراض الإنسانية» (القرطاجني، ١٩٦٦: ١١٨).

وأما ما وجدناه خلال دراستنا هذه في كتاب منهاج البلغاء للقرطاجني فهو قد يلبس على المعاني صفات إنسانية ويُخلَع عليها شيئا من ميزات البشرية وسماتهالتظهر في لباس جديد لم تكن عليها في القديم السابق، وبماأن الألفاظ ممثّلة للمعاني وخليفة جديرة عنها فهي ـ كالمعاني طبعا ـ تتبلور فيها تلك الصفات الإنسانية تبعا للمعاني، ولنا في هذا الدعوى دليل من قول القرطاجني نفسه في منهاجه حيث يقول: «وأما طريق التهدّي إلى تحسينات الأشياء وتقبيحاتها بالمحاكاة فانه لما كان المقصود انهاض النفوس الى فعل شيء أو طلبه أو إعتقاده أو التخلي عن فعله أو طلبه أو إعتقاده بما يخيل لها فيه من حسن أو قبح وجلالة وخسّة وجب أن تكون موضوعات صناعة الشعر الأشياء التي لها انتساب الى ما يفعله الإنسان ويطلبه ويعتقده، والأقاويل الدالة على تلك الأشياء من حيث تخيل بها تلك الأشياء وطرق تعلقها بالشيء أو فعله أو إعتقاده أربعة. وهي: من جهة الدين، من جهة العقل، من جهة المروءات، ومن جهة الحظ العاجل» (القرطاجني، ١٩٦٦: ١٠٦). ولعله يخطر ببال المطالع ما هو الجديد في معتقد القرطاجني فيما يخص مسألة اللفظ والمعني، أو بتعبير آخر ماذا يوجد في نظرية القرطاجني لايوجد في بقية المدارس الفكرية؟لنا القول أن القرطاجني على أقل التقادير ألبس على المعاني والألفاظ معان انسانية، الأمر الذي لم يكن بالأمر المعتاد عند قدمائه بأي شكل من الأشكال إلا نادرا. فهذا هو الذي يميز القرطاجني عن الآخرين وعمن سبقه من العلماء واللغوين. هذا وأن وجوه المعاني الإنسانية عند حازم القرطاجني تتبلور في الوجوه التالية:

Archive of SID

www.SID.ir

أ) القبض والبسط:

إن الذي يستفاد من مفهوم القبض والبسط عند حازم هو الذي يحدث للمتلقي إثر عملية التلقي، ومعنى ذلك أن المعاني يجب أن تكونمن التي تثير النفوس وتستفزّ مشاعرها! فكل من المعاني والألفاظ والخيال تتعاون مع بعضها حتى تتمكن من خلق هذا التأثير! فالمعاني اذا كانت علمية والألفاظ إذا كانت رديئة أو مبتذلة فلايتحرك منها الخيال، وبالتالي فلاتنبسط لها النفوس في مواضع الأفراح ولاتنقبض في مواضع الأتراح، وهذا هو السبب أن الكلام سمي كلاما لأنه يؤثر على سامعه لشدّته وقوّته، وحسب تعبير ابن جنّي: الكلمة مشتقة من الكلم ويدلّ على القوّة والشدّةوهو الجرح فكما أن الجرح يؤثر على الجريح بالشدّة، فالكلام أيضا يؤثر على سامعه، (ابن جني، ١٩٥٢، ج١: ١٣) وهذا شريطة أن يكون الكلام أدبيا وأن يُراعَ فيه كافة ميزات الكلام الأدبي المثير للأحاسيس، فالكلام إن لم يكن قادرا على بسط النفوس وقبضها فهو كليل عن إثارة المشاعر، فيجب أن يكون هدف الشعر والكلام الأدبي واضحا جليا في التأثير على المتلقي وعلى حد تعبير حازم نفسه في منهاجه: «القصد من الشعر هو استجلاب المنافع واستدفاع المضار، ببسطها النفوس الى ما يراد من ذلك وقبضها عما يراد بما يخيل لها فيه من خير أوشر» (القرطاجني، ١٩٦٦: ٣٣٧).

فالقرطاجني يستخلص هدف الشعر وواجبه في استنهاض الهمم واستجلاب المنافع واستدفاع المضار، ولايمكن وقوع شيء من ذلك إلا ببسط النفوس في مواضع البسط وقبضها في مواضع القبض. ويقول في موضع آخر عن أنس المعاني وعلاقتها مع بعضها حتى تستمتع منها النفوس: « فبالتصرف في المعاني يحسن موقع الأساليب من النفوس، فمَن نحا هذا النحو وسلك في الطرق والأساليب والمسالك المؤثرة وذهب بها المذاهب الملائمة للأغراض وآنس بعض المعاني ببعض وراوح بينها علىالنحو المشاراليه كان جديرا أن ترتاح النفوس لأسلوبه وأن يحسن موقعه منها» (القرطاجني، ١٩٦٦: ٣٥٩).

فحازم يعتقد أن الشعر يجب أن يكون متسلّحا بأغراض ومضامين تثير انفعالات النفس ومشاعر الإنسان، فالمرحلة الأولى لخلق القبض والبسط في المتلقّي هي جودة التصرف في المعاني، بحيث يصير لزاما على الشاعر أو الناثر أن يختار تلك المعاني التي لها يد طولى في إثارة تلك الانفعالات والمشاعر، وذلك لاينحصر في اختيار المعاني نفسها وانما في موائمة تلك المعاني والموافقة بينها مع بعضها أيضا، وهاك قول القرطاجني في ذلك حرفياً: «يجب على

Archive of SID

من أراد جودة التصرف في المعاني وحسن المذهب في اجتلابها والحذق بتأليف بعضها الى بعض أن يعرف أن للشعراء أغراضا أوَل هي الباعثة على قول الشعر وهي أمور تحدث عنها تأثرات وانفعالات للنفوس لكون تلك الأمور مما يناسبها ويبسطها أو ينافرها ويقبضها!» (القرطاجني، ١٩٦٦: ١١).

ولذلك لايستأهل المعاني العلمية والخبرية البحتة أن تكون في موضع الشعر، لضعفها وعدم تمكّنها من إستثارة المشاعر؛ لأنها تتطرق الى وصف العلم وما فيه من موضوعات، والحال أن المعاني الشعرية الحقيقية يجب أن تستقي من مناهل الشعور وتضرب على قيثارة الأحاسيس المشتركة الإنسانية، فأين هذا من ذاك؟ وكأن القرطاجني أراد أن يقول أن المعاني الشعورية هي المعاني الإنسانية لاشتمالها على الصفات البشرية ولتمكنها من ايجاد القبض والبسط في النفوس البشرية، حيث يقول: «... إن المسائل العلمية يستبرد إيرادها في الشعر أكثر الناس، ولا يستطيب وقوعها فيه الامَن صار مِن شدة ولوعه بعلم ما بحيث يتشوّف الى ذكر مسائل ذلك العلم ويحب إجرائها ولو في المواطن التي لا تليق بها ولا تقبلها ألبتة، لكون التفرّغ الكلي للراحة والأنس والتفرج أو ضد ذلك قد حجر ذكرها» (القرطاجني، ١٩٦٦: ٣٠).

وهذا الأمر واضح تماما، لأن المسائل العلمية فارغة من الخيال وقاصرةعن إثارة الحواسيس والمشاعر لكونها علمية غيرمنعتقة عن الشعور! فالمسائل العلمية في الحقيقة لاروح فيها ولا إحساس، فهي جامدة غيرإنسانية وهذا هوالسبب أنها لايُؤتَى بها في الشعر والأدب الاعلى غرر وعند من لم يكن له نصيب في الأدب أو عند من كان بصدد إثبات علمه في الشعر وهذا ينافي مع روح الشعر تماما.

هذا وأن القرطاجني تأثر في رأيه هذا من الطبيب والفيلسوف الإيراني ابن سينا أشد ما يكون من تأثير؛ وذلك لأن ابن سينا ـ رغم علمه الوافر ـ في المنطق والفلسفة و... غير أنه لم يكن منطقيا بحتا، فله آراؤه في الشعر والأدب وغيرهما! ولا تتصف آراؤه بالتخشّب والتجمّد أبدا بل انما هي ليّنة لين آراء الأدباء والنقاد، فانعكست هذه الميزة في آراء القرطاجني أيضا، وخرّجته من تحجّر المنطقيين الذين يضعون الشعر والأدب في إطار محدّد متضايق الى عالم الأدباء والنقاد المنفتحين! فالقرطاجني يرى أن ابن سينا أقرب الفلاسفة اليه في آرائه الأدبية وفي منحاه الأدبي، لأنه لم يكن منطقيا بحتا، فهو لا يعرِّف الشعر بالصناعة البحتة خلافا للمنطقيين، وانما يرى في الشعر الهاما لايوزن بموازين المنطق والعالم

Archive of SID

www.SID.ir

المحسوس، (راجع: أرسطوطاليس، ١٩٧٣: ١٦١؛ والزرقاني، ١٣٩١: ٢٢٣) كما أن لإبن سينا آراءه في الشعر والوزن والقبض والبسط وغيرها، وهذا هوالسبب أن القرطاجني يحذو حذوه ويتأسّى به بين عدد ملحوظمن العلماء والفلاسفة والمنطقيين، فيقتبس من أقوال إبن سينا في غير موضع من منهاجه، فانظر مثلاً إلى قول ابن سينا في انفعال النفس بالشعر والكلام المخيَّل: «انما ينظر المنطقيّ في الشعر من حيث هو مخيّل والمخيل هو الكلام الذي تذعن له النفس فتنبسط عن أمور وتنقبض عن أمور من غير رويّة وفكر واختيار، وبالجملة تنفعل له انفعالا نفسانيّا غير فكري سواء كان المقول مصدقا أو غير مصدق» (أرسطوطاليس، ١٩٧٣: ١٦١). يقول القرطاجني ملهما كلام الشيخ الرئيس: « والتخييل أن تتمثل للسامع من لفظ الشاعر المخيل أو معانيه أو أسلوبه ونظامه وتقوم في خياله صورة أو صور ينفعل لتخيلها وتصورها أو تصور شيء آخر بها انفعالا من غيررويه الى جهة من الانبساط أو الانقباض» (القرطاجني، ١٩٦٦: ٨٩). ويقول في موضع آخر من كتابه:

« لما كانت أغراض الشعر شتى وكان منها ما يقصد به الجد والرصانة وما يقصد به الهزل والرشاقة ومنها مايقصد به البهاء والتفخيم وما يقصد به الصغار والتفخيم وجب أن تحاكى تلك المقاصد بما يناسبها من الأوزان ويخيلها للنفوس، فاذا قصد الشاعر الفخر حاكى غرضه بالأوزان الفخمة الباهية الرصينة واذا قصد في موضع قصد هزليا أو استخفافيّا وقصد تحقير شيء أو العبث به حاكى ذلك بما يناسبه من الأوزان الطائشة القليلة البهاء وكذلك في كل مقصد... وهذا الذي ذكرته من تخيل الأغراض بالأوزان قد نبّه عليه إبن سينا في غيرموضع من كتبه» (القرطاجني، ١٩٦٦: ٢٦٦). ونكتفي بهذا القدر اليسيرفي إثبات تأثّر حازم من إبن سينا ولا نطيل الكلام اتقاءً للإطالة ولكون الموضوع خارجا عن صلب المقال.

ب) فطرية المعاني: بحيث تدعو إلى الاستلذاذ والاستمتاع وتَجُرُّ النفوسَ اليهما، والأساس في الفطرية يكمن في كون المعاني قريبة الى الفطرة السليمة والأغراض الإنسانية الرفيعة، وعلى حد تعبير القرطاجني بالحرف الواحد: "أحق الأشياء هي التي يجب أن يميل الناس اليها أو ينفروا عنها الأشياء التي فطرت النفوس على استلذاذها أو التألم منها أو حصل لها ذلك بالإعتياد ولذلك يجب أن تكون أعرق المعاني في الصناعة الشعرية ماشتدّت علقته بأغراض الإنسان وكانت دواعي آرائه متوفّرة عليه وكانت نفوس الخاصة والعامّة قد اشتركت في الفطرة على الميل اليها أو النفور عنها أو من حصول ذلك اليها بالإعتياد، وجب أن يكون ما لم تتوفر دواعي

www.SID.ir

أغراض الإنسان عليه وما انفرد بإدراكه المكتسب الخاص دون الجمهور غير عريق في الصناعة الشعرية بالنسبة الى المقاصد المألوفة والمدارك الجمهورية. (القرطاجني، ١٩٦٦: ٢٠)

خذ مثالا لزيادة الإيضاح فإنك لو استخدمت المعاني والتعابير السوقية والمهنية لضعتها وردائتها في صناعة الشعر والأدب، لأزلت طلاوة الكلام وحلاوته وحسن موقعه من النفس. والسؤال الذي يطرح نفسه ههنا بإلحاح كيف يمكن أن تكون المعاني فطرية؟ كيف يسوّغ لأحد أن يتّصفها بالفطرية؟ وهذا هو مراد القرطاجني من الفطرية، كأنه يصنع من تلك المعاني وجوهاً بشرية ويُخلِع على تلك الوجوه معان انسانية! فالفطرية عند حازم هي المعاني التي انفطرت نفوس الجمهور على استشعار الفرح منها أو الحزن والشجو من جرائها؛ لأن المعاني كلما كانت قريبة الى الجبلة والفطرة النقية كلما ازداد تأثيرها وقبولها عند الخواص والعوام! وأصول الفطرة عند حازم أربعة وهي تتمثّل في الدين والعقل والمروءة والشهوة، (القرطاجني، ١٩٦٦: ١٠٨) وماخالف تلك الوجوه الأربعة خارج عن الفطرية.

وأما الأسباب التي دفعت بحازم القرطاجني أن يدرج تلك الوجوه الأربعة ضمن الفطرية فواضحة تماما، لأنها تشكّل جوهر الإنسان، وما يبقى من وجوه أخَرَ فهي من ضمن العرضيات. فالمعاني التي تنطوي على المفاهيم الدينية فهي ما تؤثره النفس من الثواب على فعل شيء وتخاف من العقوبة على تركه وإهماله،وأما المعاني التي تتضمّن في طياتها المعاني العقلية فهي كل ما يدعو الى التخلّي عن الجهل والسفاهة، فهذين المعنَيَيْنِ واضحان ولاحاجة لنا بمزيد من التفصيل، غير أن المراد من المعاني الفطرية التي تشتمل على المروءة هوما تؤثره النفس من الذكر الجميل والثناء عليه أو ما يستحثّه من مشاعر انسانية مشتركة خالدة كالحب والتضحية والوفاء الخ، لأنك لن تجد على وجه المعمورة أحدا يستشنع الكرم والسخاء والذكر الحسن أو يقبّح الحب والغيرة الا مجنون من الرجال أو تائه في الحيرة والضلال. وقد عبّر القرطاجني عن المعاني الفطرية التي تشتمل على الشهوة بالحظ العاجل، ومراده من ذلك حصول الإنسان على ما يبتغيه من حاجيات نفسه وغرائز جسمه من المأكل والمشرب وما الى ذلك في القريب العاجل. فكل ما تحرص عليه النفس وتشتيهه مما ينفعها من جهة رفع حوائجه وتحسينات عيشه فهو من ضمن الشهوة أو الحظ العاجل، كما يندرج في هذه الخانة كل من الحب والعشق والغرام... فانظر مثلاً إلى قول عنترة حين يخاطب عشيقته ـ عبلة ـ في جو ملؤه الخوف والحرب والنزال فيخاطبها خطاب عاشق متيّم يريد أن يقبل السيوف والرماح؛ لأنها تضارع ثغرعشيقتها المتبسّم:

Archive of SID

www.SID.ir

وَلَقَـد ذَكَرْتُـكَ والرِّمَـاحُ نَوَاهِـلٌ مِنِّـي وبِيضُ الهِنْـدِ تَقْطُـرُ مِـنْ دَمِـي
فَـوَدِدْتُ تَقْبِيـلَ السُّـيُوفِ لِأَنَّـهَا لَمَعَـتْ كَبَـارِقِ ثَغْـرِكَ المُـتَبَسِّمِ

(القرشي، دون تا: ٣٧٧)

كيف يمكن أن يتلقّى المخاطب أو المتلقّي بتلك الأبيات ولم يُدَغدَغ مشاعره وأحساسيه؟ والحال أنها تنطلق بالإنسان الى آفاق الخيال وسماء الحب، في جو من الحماسة البهيجة والقدرة المخيفة!وينقل القرطاجني في منهاجه وصية أبي تمام للبحتري حين يخاطبه بأن يستخدم شهوته للنشيد والقريض، لأنها نعم المعين في ذلك: «... فان أردت النسيب فاجعل اللفظ رقيقا والمعنى رشيقا وأكثر فيه من بنات الصبابة وتوجع الكأبة وقلق الأشواق ولوعة الفراق... وإياك أن تشين شعرك بالألفاظ الزرية وكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الأجسام واذا عارضك الضجر فأرح نفسك ولاتعمل الّا وأنت فارغ القلب واجعل شهوتك لقول الشعر ذريعة الى حسن نظمه، فإن الشهوة نعم المعين» (القرطاجني، ١٩٦٦: ٢٠٣).

والحاصل أن موضوع صناعة الشعر واتصاف معانيها بالمعاني الإنسانية يرجع لدى حازم إلى الأسباب الأربعة المذكورة وهي الدين والعقل والمروءة والشهوة.

ج) شرف المعاني وخستها

كيف يحتمل أن يكون معنى من المعاني شريفا تاما؟ وكيف يخرج المعنى من الأنانية والخساسة الى الشرف والطلاوة؟ نعتقد أن ذلك مردّه الى كون المعنى أصلا، بحيث لو كان المقام مقام مدح أو رثاء أو فخر فلا يؤتى الابالمعاني الشريفة! وعلى النقيض من ذلك بحيث لو كان المقام مقام الذم والهجو فلا تؤتى إلا بالمعاني الخسيسة القبيحة! والموافقة بين المقام والمقال خارج عن إطار مقالنا هذا والمهم في ذلك نسبة الشرف أو القبح أو الخساسة أو الرذالة... إلى المعاني، بحيثخلع القرطاجني ـ اقتداء ببشر بن معتمر والجاحظ وابن سينا ـ على تلك المعاني صفاتا إنسانية، غير أن مستوى استخدام تلك الصفات وبلورتها لدى حازم أكثر من الآخرين بكثير.

يبدو أن بشر بن معتمر هو أول من أصّل المعاني الإنسانية وتحدّث عن شرف المعنى واللفظ، بحيث ينقل عنه الجاحظ في البيان والتبيين: «إيّاك والتوعّرَ، فإنّ التوعّر يُسلمك الى التعقيد، والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك، ويشين ألفاظك. ومن أراغ معنى كريما فليلتمس له لفظا كريما، فإنّ حقّ المعنى الشريف اللفظُ الشريف، ومن حقّهما أن تصونهما عمّا

Archive of SID

www.SID.ir

يفسدهما ويهجنها...» (الجاحظ، ١٩٤٨، ج١: ١٣٦) ويذكر حازم شرف المعاني في مواضع كثيرة في منهاجه، على شاكلة ما نرى عن قوله واصفا الشعر الجيد: «ويُستحسَن أن يقدم في صدر المصراع ما يكون لطيفا محركا بالنسبة الى غرض الكلام كالمناجاة والتذكر في النسيب وما جرى مجراهما... ويجب أن يكون المصراع الثاني مناسبا للمصراع الأول في حسن عبارته وتمامها وشرف معناها بالجملة» (القرطاجني، ١٩٦٦: ٢٨٤)، وعن قوله: «... اذا قصد إبعاد الغاية في الروية والتنقيح فتطلب المعاني الشريفة ونزع بها المنازع اللطيفة وجهد في إبرازها من العبارات في صور بديعية، فيحتاج في كل ذلك الى تنقيب وفحص...» (القرطاجني، ١٩٦٦: ٢١١).

فيتضح من المقول أن المعنى لا يتصف عند القرطاجني بالشرف والعلو الاإذا كان يحتوي في طياته مفاهيم الدين والعقل والإنسانية؛ فالمعاني لولم تتّصف بتلك المفاهيم فهي خسيسة قبيحة. هذا وأن القرطاجني أطلق لفظ الشريف على المعاني أكثر من غيرها، مما له صلة متينة بالإنسانية حيث أن الشرف ميزان الإنسانية، فاذا تخلي الناس عن هذه الميزة كأنهم تخلوا عن كل خير، وكذلك المعاني اذا كانت شريفة فهي على أعلى درجات القوة في الكلام، الأمرالذي يساهم أكبر مساهمة في تأثير الكلام أو الشعر على المخاطب والمتلقي؛

د) رشاقة المعاني

يقال رجل رشيق أي حسن القد لطيفه،ويقال للغلام والجارية رشيق ورشيقة إذا كانا في اعتدال. (صحاح للجوهري، ١٩٩٠، ج٥: ١٦٨) يعتقد القرطاجني أن المعاني الرشيقة تُستخدم في النسيب والتغزل، لأن الرشاقة تناسب هذا المقام تماما، وقد يطرح هذا التساؤل لماذا لم يأت بذكر المعاني الشريفة ههنا بيانا للمفاهيم الغزلية؟ فنقول إن المعاني الشريفة ـ رغم كونها كبيرة محبّبة إلى القلوب والنفوس ـ غير أنها لا تناسب مقام الغزل والصبابة، وإن ما يناسب ذلك هو المعاني الرشيقة المتلألئة؛ لأنها تستثير أحاسيس المتلقّي وتستفزّ مشاعره وتضرب على أوتار قلب العشيقة ولو كنا أتينا في هذا السياق بالمعاني الشريفة لما أفادت المعنى المقصود؛ لأن المعاني الشريفة رغم أنها تدل على بلورة صفة إنسانية فيها ولكنها اذا ذكرت في مقام الغزل لَمَا استطاعت أن تفيد معنى الرشاقة؛ فخذ مثلا في ذلك لزيادة الإيضاح، يقول الشاعر:

مَا كُنْتُ أَحْسَبُ قَبْلَ حُبِّكَ أَنْ أَرَى ... فِي غَيْرِ دَارِ الخُلْدِ حُورَ العَيْنِ

(ابن سهل الأندلسي، ٢٠٠٣: ٧٩)

Archive of SID

www.SID.ir

فالشاعر لو كان يستخدم بدل كل من كلمات "الحب" و"دار الخلد" و"حور العين" الرشيقة، كلمات مطنطنة ثقيلة لما استطاع أبدا من يصل إلى المتلقي هذا المفهوم الذي كان بصدده من بيان الحب واختلاجات الصدر والضمير.

هـ) شناءة المعاني وقبحها

كل معنى يخالف الشرف والحسن ويقع في نقيض من الكرامة فهي مشنوء، والمشنوء هو المبغوض ولو كان جميلا. (ابن منظور، مادة: شنأ) وشناءة المعنى وقبحه من الصفات الأخرى التي ذكرها القرطاجني في المعاني وكأنه يريد بذكر هاتين الصفتين أن يلبس على المعاني صفات إنسانية، أنظر مثلا الى قوله عن القافية: «فأما ما يجب في القافية من جهة عناية النفس بما يقع فيها واشتهار ما تتضمنه مما يحسن أو يقبح فإنه يجب أن لا يوقع فيها الاما يكون له موقع من النفس بحسب الغرض وأن يتباعد بها عن <u>المعاني المشنوءة</u> والألفاظ الكريهة ولاسيما ما يقبح من جهة ما يتفاءل به» (القرطاجني، ١٩٦٦: ٢٧٥-٢٧٦). وإلى قوله في موضع آخر من منهاجه: « فأما ما تتأكد به العناية عند قوم ولاتتأكدعند الآخرين فمقاطع القصائد وأبياتها الأواخر وذلك من جهة ما يرجع الى هيئات الوضع والتأليف والأطراد والألفاظ والمعاني والنظام والأسلوب، فأما من جهة وقوع لفظ مكروه أو <u>معنى مشنوء</u> في منقطع الكلام فالرأي فيه واحد، في أن التحفظ منه واجب على كل ناظم أو ناثر» (القرطاجني، ١٩٦٦: ٣٠٨-٣٠٩).

جدير بالذكر أن القرطاجني ذكر المعنى المشنوء الى جانب اللفظ المكروه، وذلك لأن اللفظ يتبع المعنى في قبحه وجماله. ولاتنحصر المعاني الإنسانية لدى حازم القرطاجني فيما ذكرناه وبيّناه من الأمثلة والشواهد وانما هي كثيرة كثرة مفرطة، فهو يدرج في المعنى الشريف كل ما كان موافقا للدين والعقل ولم يكن من خَوارم المروءة، وعلى العكس من ذلك بحيث يضع كل القبح والرذل تحت المعنى القبيح والمشنوء.

بلورة الإنسانية في الألفاظ

ما من شك أن للألفاظ حياتها أيضا، فمنها ما تموت عبر الزمان ومنها ما يبقى الى يومنا الراهن، ومنها ما يطرأ عليه التغيير والتحويل وتتلبّس بلباس جديد قشيب وتخلع من نفسها القديم الزائل، فلها ـ كما للإنسان والمجتمعات البشرية ـ حياة، ولها شأنها ومرتبتها في المجتمعات الراقية والمتطورة علما وحضارة، بحيث لايمكن الإساءة إلى ساحتها أو

Archive of SID

www.SID.ir

إخراجها عما هي عليها وكأنها في انسجامها ووحدتها أبناء البشر تتعايش مع بعضها! واللغة ككل ترتبط ببيئتها وتؤثر عليها وتتأثر منها. فاللغة بكل ألفاظها ومعانيها في المجتمعات التي لاتُنتَهك فيها حقوق أفرادها، مصانة، فهي لاتنسلخ عن ماهيّتها وطبيعتها الحقيقية خلافا للمجتمعات المستبدة التي تتقاعس عن أداء حقوق أبناءها، فكما أن حقوق الأشخاص تنتهك في المجتمعات الوراثية الأتوقراطية فحقوق الألفاظ ومعانيها ليس في مأمن من هذا الانتهاك المشين! (انظر: شفيعي كدكني، ١٣٨٩: ٨٩- ٩٢)

إن الأصل عند حازم هو المعنى، فالمعنى اذا انبثق عن ينابيع الفطرة والسجية والجبلة فلاسبيل للألفاظ الاأن تكون جميلة ومتلبسة بلباس تلك المعاني، لكي تستطيع من إفادة المعنى المراد، وهذا هوالسبب أن اللفظ لاينبض الا بنبضات المعاني، لأنه تابع لها ويحاذيها في كل صفاتها ومضامينها. والصفات الإنسانية اذا تجلت في المعاني، فلابد أن تتجلي في الألفاظ أيضا، لأن الألفاظ وعاء للمعاني ولاتستطيع أن تستمر في حياتها دون اتكالها على الألفاظ، ومن ثم كلما كانت المعاني انسانية كلما تحلّى الألفاظ بالإنسانية تبعا لتلك المعاني، فالمتكلم عندما يريد أن ينقل معنىً الى المخاطب، يجب أن يجعل اللفظ تابعا لهذا المعنى، وفي الحقيقية للألفاظ علاقاتها المتينة مع بعضها ومع المعاني أيضا، ولايجوز الإغماض عن تلك العلاقات؛ لأن ذلك تعدى إلى حدودها.

هذا وأن القرطاجني يعتقد بإنسانية الألفاظ والتعابير أيضا، بحيث قام بتقسيم عدد من الألفاظ حسب الصفات الإنسانية وميزاتها، واليك بعض تلك الأمثلة:

خسة الألفاظ وردائتها وقبحها

تتبلور وظيفة الألفاظ في إفادة المعنى وإيصاله إلى المتلقي، وبما أن المعنى عند القرطاجني هو الأصل وعليه يدور قطب الرحى، يجب أن ينسجم اللفظ مع المعنى وأن يتضافر معه. ويرى القرطاجني أن علاقة اللفظ والمعنى متينة الى أبعد الحدود حيث يفترض أن اللفظ في صناعة الشعر والكلام لوحة جميلة يعمل عمل الأصباغ والألوانوما تتمخّض من هذه العملية المتماسكة الأجزاء في خلق تلك اللوحة هو المعنى، والحكاية هي الحكاية نفسها في عالم الألفاظ والشعر والنثر، حيث إن لم تكن بين الألفاظ المنتقاة مع المعنى المراد موائمة فلم يؤدّ اللفظ مهمته المنشودة في نقل المعنى المراد إلى المتلقي.

من الصفات الإنسانية التي يذكرها حازم في منهاجه في مسألة اللفظ هي الخساسة،

Archive of SID

www.SID.ir

والمراد من ذلك استخدام الألفاظ الوضيعة والدنيئة في مواضع الضعف والخساسة، فلا توظّف تلك الألفاظ الا في مقام الهزل والسخرية والإستهزاء، لكي تتمكن من إفادة المعنى المراد، بحيث يجب أن يكون اللفظ الملقى في مقام الهزل والإستهزاء هزيلا خسيسا، وعلى حد تعبير القرطاجني في منهاجه: ... لها باطن خسيس في الهزل... (القرطاجني، ١٩٦٦: ٣٢٩). فيتضح أن مواضع إستخدام تلك الألفاظ هي الهزل والسخرية، ولابد من وجود تلك الألفاظ في اللغة والعلاقات البشرية؛ لأن المجتمع البشري لا يخلو يوما ما من السخرية بيانا لمعايبه ومناقصه! يقول القرطاجني عن الألفاظ الخسيسة ومناسبتها مع مقتضى الحال:

«...شيوع استعمال العبارات الساقطة والألفاظ الخسيسة ككثير من ألفاظ الشطار المتماجنين وأهل المهن والعوام والنساء والصبيان على الوجه الذي تقبل به الطريقة ذلك، ... وهذا موجود في مجون أبي نواس كثيرا وغيرمنقود عليه، ذلك لأنه لائق بالموضع الذي أورده فيه من أشعاره التي يقصد بها الهزل» (القرطاجني، ١٩٦٦: ٣٣١).

والرداءة والقباحة من الصفات الأخرى التي ينسبها القرطاجني الى الألفاظ، ويخلع عليها صفة القبح والرداءة اللذيْنِ لاتتصف الألفاظ بهما في الحقيقة، وانما تتصف بهما مظاهر الطبيعة والصفات الإنسانية، يقول القرطاجني:

«وإعلم أن منزلة حسن اللفظ المحاكي به وإحكام تأليفه من القول المحاكي به ومن المحاكاة بمنزلة عتاقة الأصباغ وحسن تأليف بعضها الى بعض وتناسب أوضاعها من الصورالتي يمثلها الصانع، وكما أن الصورة اذا كانت أصباغها رديئة وأوضاعها متنافرة وجدنا العين نابية عنها غيرمستلذة لمراعاتها وإن كانت تخطيطها صحيحا، فكذلك الألفاظ الردئية والتأليف المتنافر، وإن وقعت بها المحاكاة الصحيحة فإنا نجد السمع يتأذى بمرور تلك الألفاظ الرديئة القبيحة التأليف عليها... فلذلك كانت الحاجة في هذه الصناعة الى اختيار اللفظ وإحكام التأليف أكيدة جدا» (القرطاجني، ١٩٦٦: ١٢٩).

كراهة الألفاظ وزريتها

يذكر القرطاجني الألفاظ المكروهة أمام المعاني المشنوءة، وبتعبير أجل يعتقد أن المعنى لو كان قبيحا يصير اللفظ ـ تبعا لذلك ـ مكروها أو زريّا، فالألفاظ المكروهة أو الزريّة قاصرة عن التأثير الإيجابي على المتلقي، لأنها تنقص من سمو الكلام ورفعته.ومامن شك أن للألفاظ ـ كما أشرنا ـ حرمتها وحدودها، فلايجوز التعدي اليها ولاالتخطي عنها، وتوظيف

Archive of SID

www.SID.ir

الألفاظ الزرية والكريهة في الكلام والأدب فضلا عن تأثيرها السلبي على المخاطب إنتهاك الى حقوق اللفظ والتعبير. ينقل حازم في كتابه المنهاج وصية أبي تمام للبحتري، حيث يقول له: «وإيّاك أن تشين شعرك بالألفاظ الزرية وكن كأنّك خيّاط يقطع الثياب على مقادير الأجسام» (القرطاجني، ١٩٦٦: ٢٠٣).

وقد يطرح بعضهم أن الألفاظ الكريهة والقبيحة تكوّن جزءاً من الكلام البشري وليس بالإمكان شطبها من قاموس الناس ولابد من تلك الألفاظ لمعرفة الجميلة منها وعلى ما يقال: تُعرَف الأشياء بأضدادها، فنقول إجابة على هذه الإشكالية: أن مراد القرطاجني هو تأثير الكلام الشعري أو الأدبي على المخاطب ولايقصد الكلام العادي عند السوقة والشعب، وذلك لأننا لو أردنا أن يؤثر الكلام الأدبي على المتلقي أكبر تأثير فلابد فيه من إنتقاء الألفاظ الصحيحة والفارغة عن كل قبح وشناعة.

حسن الألفاظ

إن المراد من حُسن الألفاظ هو استحكامها وتعاونها مع بعضها من جهة وتناسبها مع المعنى من جهة أخرى. إن المعنى ـ كما ألمحنا من قبل ـ إذا كان شريفا فاللفظ يتبعه في ذلك فيصبح شريفا حسنا، فألفاظ الحسان رهينة بوجود المعاني الشريفة، فانظر مثلا الى قول القرطاجني في منهاجه حيث يضع اللفظ الحسن أمام المعنى الشريف مما يدل على أن الإصالة هي للمعنى: «فأما ما يجب في المطالع على رأي من يجعلها استهلالات القصائد فمن ذلك ما يرجع الى جملة المصراع وهو أن تكون العبارة فيه حسنة جزلة وأن يكون المعنى شريفا تاما، وأن تكون الدلالة على المعنى واضحة وأن تكون الألفاظ الواقعة فيه لاسيما الأولى والواقعة في مقطع المصراع مستحسنة غير كريهة من جهة مسموعها ومفهومها» (القرطاجني، ١٩٦٦: ٢٨٢). ويقول في موضوع آخر: «كذلك يحسن نظم القصيدة من الفصول الحسان كما يحسن ائتلاف الكلام من ألفاظ الحسان اذا كان تأليفها منها على ما يجب» (القرطاجني، ١٩٦٦: ٢٨٧).

Archive of SID

www.SID.ir

النتائج

كانت ولا تزال مسألة اللفظ والمعنى من أهم المسائل التي حيّزت قسما كبيرا من الأدب العربي، وانشغل بها جم غفير من العلماء والنقاد، وكان منهم مَن تطرّق الى هذه المسألة بنظرة إنسانية وطرح موضوع تناسب اللفظ والمعنى ومطابقة مقتضى الحال وشرف المعنى أو رشاقته أو قبحه وخساسته وكذلك اللفظ.وكان حازم القرطاجني من أكبر من تطرّق الى موضوع إنسانية المعنى واللفظ، حيث لخّص أسس إنسانية المعنى والألفاظ في أربعة: وهي الدين والعقل والمروءة والشهوة، وكان يعتقد أن الكلام لايحظى بالتأثير على المتلقي الاذا كان إنسانيا أوّلا وفطريّا منبعثا عن الشعور ثانيا. وما ساقنا أن نجعل القرطاجني على ذروة موضوع إنسانية اللفظ والمعني رأيُه في فطرية المعاني والقبض والبسط وإلباسه على المعاني والألفاظ صفاتا إنسانيةَ كالشرافة والرشاقة والرداءة والقباحة والخساسة وغير ذلك. وكان يرى أن الفطرية في المعاني والألفاظ هي قربها من الفطرة السليمة ومن الأغراض الإنسانية الكريمة، لتكون أشد علقة بأغراض الإنسان، وأما المراد من القبض والبسط كون المعاني والألفاظ مثيرة للنفوس والمشاعر بحيث إنها إذا كانت خسيسة ردئية لاتتيسر لها إنبساط النفوس عند الأفراح ولا إنقباضها عند الأتراح. رغم أن موضوع إنسانية اللفظ والمعنى كان قد طرح من قبل لدى عدد من العلماء والأدباء كبشربن معتمر والجاحظ وإبن سينا وغيرهم الاأنه كان محدودا ضيقَ النطاق، ولم يكن بتلك الشمولية والموضوعية اللتين نراهما عند القرطاجني.

Archive of SID

www.SID.ir

المصادر والمراجع

١. ابن جنّي، عثمان (١٩٥٢م). الخصائص. تحقيق محمّد علي النجّار، القاهرة: المكتبة العلمية.

٢. ابن سهل الأندلسي، ابراهيم (٢٠٠٣م). الديوان. دراسة وتحقيق يسري عبدالغني عبدالله، ط ٣، بيروت: دار الكتب العلمية.

٣. ابن قتيبة (١٩٥٨م). الشعر والشعراء. تحقيق أحمد محمد شاكر، ط ٢، القاهرة: دار المعارف.

٤. ابن منظور، محمد بن مكرم (دون تا). لسان العرب. بيروت: دار صادر.

٥. الأخطل، غياث بن غوث (١٩٩٦م). شعر الأخطل. تحقيق فخرالدين قباوة، ط ٤، بيروت: دار الفكر المعاصر.

٦. أرسطوطاليس (١٩٧٣م). فن الشعر مع الترجمة العربية القديمة وشروح الفارابي وابن سينا وابن رشد. ترجمه عن اليونانية وشرحه وحقق نصوصه عبدالرحمن البدوي، ط ٢، بيروت: دار الثقافة.

٧. الجاحظ، عمرو بن بحر (١٩٤٨م). البيان والتبيين. تحقيق وشرح عبدالسلام هارون، بيروت: دار الفكر.

٨. ـــــــــــــــ (١٩٦٩م). الحيوان. تحقيق وشرح عبدالسلام هارون، ط ٣، بيروت: دار إحياء التراث العربي.

٩. جاسم، حياة (١٩٨٦م). وحدة القصيدة في الشعر العربي حتى نهاية العصر العباسي. الرياض: دار العلوم.

١٠. الجرجاني، عبدالقاهر (٢٠٠١م). دلائل الإعجاز في علم المعاني. تصحيح محمد عبده التركيزي الشنقيطي، ط ٣، بيروت: دار المعرفة.

١١. جمعي، الأخضر (٢٠٠١م). اللفظ والمعنى في التكفير النقدي والبلاغي عند العرب. دمشق: منشورات اتحاد كتاب العرب.

١٢. الجوهري، إسماعيل بن حماد (١٩٩٠م). الصحاح. ط ٤، بيروت: دار العلم للملايين.

١٣. حاجي زادة، مهين (٢٠١٠م). البحث الدلالي عند ابن جني. مجلة اللغة العربية وآدابها، السنة ٦، العدد ١٠، ربيع وصيف.

Archive of SID

www.SID.ir

١٤. الزرقاني، سيد مهدي (١٣٩١ش). بوطيقاي كلاسيك. طهران: منشورات سخن للنشر والتوزيع.

١٥. شفيعي كدكني، محمد رضا (١٣٨٩ش). مفلس كيميا فروش. نقد وتحليل شعر انوري، ط ٤، طهران: منشورات سخن للنشر والتوزيع.

١٦. شميسا، سيروس (١٣٨٨ش). نقد أدبي. ط ٣، طهران: منشورات ميترا للنشر والتوزيع.

١٧. عبدالمطلب، عمر ادريس (٢٠٠٩م). حازم القرطاجني حياته ومنهجه البلاغي. الرياض: دار الجنادرية للنشر والتوزيع.

١٨. العسكري، أبوهلال حسن (٢٠١٣م). الصناعتين: الكتابة والشعر. تحقيق علي محمّد البجاوي؛ وأبوالفضل ابراهيم، بيروت: المكتبة العصرية.

١٩. القرشي، محمد بن أبي الخطاب (دون تا). جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام. حققه علي محمد البجاوي، القاهرة: منشورات نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.

٢٠. قرطاجني حازم (١٩٦٦م). منهاج البلغاء وسراج الأدباء. تقديم وتحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة، التونس: دار الكتب الشرقية.

٢١. قدامة بن جعفر، أبوالفرج (دون تا). نقد الشعر. تحقيق عبدالمنعم الخفاجي، بيروت: دار الكتب العلمية.

٢٢. القيرواني، ابن رشيق (١٩٨١م). العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده. حققه محمد محيي الدين عبدالحميد، ط ٥، بيروت: دار الجيل.

٢٣. الودرني، أحمد (٢٠٠٤م). قضية اللفظ والمعني ونظرية الشعر عند العرب من الأصول إلى القرن السابع للهجرة. بيروت: دار الغرب الإسلامي.

Archive of SID

www.SID.ir